

أضواء البيان

@ 232 { وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُ هُونُ تَسْبِيحِهِمْ } ، وقال تعالى : { وَإِنْ مِّنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِّنَ مَّاءٍ إِلَّا يَشُقُّهُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِّنَ مَّاءٍ لَّمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } ، وقال تعالى : { إِنْ زُلْزِلَا عَرْضُ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا إِلَى السَّمَاءِ وَاتِ وَالْأَرْضُ رُضًا وَالْجِبَالُ فَتَابِينَ أَنْ يَحْمِلَهُنَّ وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا } . وقد ثبت في صحيح البخاري : أن الجذع الذي كان يخطب عليه النبي صلى الله عليه وسلم لما انتقل عنه بالخطبة إلى المنبر سمع له حنين . وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أُبعث . إني لأعرفه الآن) وأمثال هذا كثيرة . والقاعدة المقررة عند العلماء : أن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب الرجوع إليه . والتسبيح في اللغة : الإبعاد عن السوء ، وفي اصطلاح الشرع : تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله .

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ } أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح والظاهر أن قوله { وَكَذَّبَا فَاعِلَيْنَ } مؤكد لقوله : { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحُونَ وَالطَّاغُوتَ } والموجب لهذا التأكيد : أن تسخير الجبال وتسبيحها أمر عجب خارق العادة ، مظنة لأن يكذب به الكفرة الجهلة .

وقال الزمخشري { وَكَذَّبَا فَاعِلَيْنَ } أي قادرين على أن نفعل هذا . وقيل : كنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك . وكلا القولين اللذين قال ظاهر السقوط . لأن تأويل { وَكَذَّبَا فَاعِلَيْنَ } بمعنى كنا قادرين بعيد ، ولا دليل عليه كما لا دليل على الآخر كما ترى . وقال أبو حيان { وَكَذَّبَا فَاعِلَيْنَ } أي فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال وتسبيحهن ، والطير لمن نخصه بكرامتنا ، وأظهرها عندي هو ما تقدم ، والعلم عند الله تعالى . وقوله تعالى : { وَعَلَّمَ دَاوُودَ صَنُوعَهُ لِدَاوُودَ لِّسَانَهُ لِيَتَدَبَّرَهُ مِّنْ بَآئِئِ السِّكْرِ فَهَلْ أُنْتُمْ شَاكِرُونَ } . الضمير في قوله { عَلَّمَ دَاوُودَ } راجع إلى داود ، والمراد بصيغة اللبوس : صنعة الدروع ونسجها . والدليل على أن المراد باللبوس في الآية الدروع : أنه أتبعه بقوله { لِيَتَدَبَّرَهُ مِّنْ بَآئِئِ السِّكْرِ } أي لتحرز وتقي بعضكم من بأس بعض ، لأن الدرع تقيه ضرر الصرب بالسيف ، والرمي بالرمح والسهم ، كما هو

